

هارب.. من العدالة

بقلم: مانوهار مالجونكار

كنت أحب أن أقدم لك نفسي.. ولكنني لن أثقل عليك وسأكتفي بأن أتحدث قليلاً عن هوايتي.. وهذه الهواية بلا مقدمات هي «الرسم».. إنني مغرم بتخطيط الرسوم الكروكمية السريعة التي لا تطلب عناء ولا تدل على فن عميق أو موهبة أصيلة.. وقد نشأت معي هذه الهواية منذ كنت تلميذاً في المرحلة الأولى من التعليم.. كنت أمضي معظم وقتي في الدراسة في رسم الوجوه التي ألتقي بها.. وجوه التلاميذ، وجوه المدرسين.. هذا كل ما توصلت إليه من هذا الفن الجميل الذي أتعلق به.. رسوم تخطيطية للوجوه وملامحها المتباينة.. لقد كان أكثر الناس عندما يرون رسومي يقولون ساخرين إنها أقرب ما تكون إلى الكاريكاتير الذي يرسم اعتباطاً، ولكن هذا النقد لم يعنيني كثيراً، فقد اطمأنت إلى أن كل من يرى رسومي يستطيع في يسر أن يتعرف عليها، ويميز بينهما، ويعرف الوجوه التي نقلت عنها.

بل لقد بلغ من إعجاب بعض أصدقائي برسومي، أن أشاروا عليّ بأن أعمل على تنمية هذه الموهبة عندي..، هم إذن يدعونها موهبة»!.. ومع ذلك فإنني لم أكد أترك المدرسة حتى التحقت بالجيش.. وفي الجيش لا يجد المرء الوقت الكافي لممارسة هوايات كهذه..

وعلى الرغم من أنني لم أكن أبذل جهداً يذكر لتنمية هذه «الموهبة» فقد كنت أحرص على أن أحمل معي في أكثر الأوقات كراسة لطيفة للرسم.. كنت أصطحبها حتى وأنا ذاهب إلى الحفلات والمآدب!.. إنني لم أكن أظن ان الناس مشغوفون برسومهم إلى هذا

الحد الذي رأيته، حتى ولو كان الرسام مجرد «هاو» مثلي!.. وأذكر بهذه المناسبة من اختباراتي في هذا المضمار أن أحدهم نفحني مائة روبية في مقابل رسم وجهه!.. وهذه فلتة لا ينبغي أن تمر مروراً عابراً دون أن أقدم لك تفاصيلها، فقد بنيت عليها حديثي كله معك.

والواقع إنني كنت أتهدب أن أرسم وجوه الناس.. كنت أتوهم أن أصحابها لا يرتاحون إليّ وأنا أرسمهم ولكن الحقيقة كانت غير هذا.. إن معظم الناس يرحبون بالظروف التي تهيب لهم أن يروا رسومهم وملامحهم على الورق.

تحققت من ذلك عندما كنت مريضاً في المستشفى المركزي رقم ٣٦٦ بالقرب من «كلكتا» وإن لم يكن أمراً ذا بال.. لقد علم بهوايتي بعض موظفي المستشفى، وبعض الممرضات، فأبقوني هناك تحت أنظارهم ثلاثة أسابيع.. ولا شيء يصنعونه في معظم الأوقات إلا أن يجلسوا أو يتمددوا على بعض السرة المرتفعة.. ويدعوني إلى أن «أرسمهم».. وقد كنت أرسم حتى وجوه زملائي المرضى، وقبل كل شيء كنت أرسم وجوه الممرضات.. الفاتنات. كانت الكثيرات منهن فائقات الجمال، وبعضهن كن من كواكب هوليوود أو هكذا خيل إلينا - نحن الذين لم نبتعد عن ثكنات الجيش ومعسكرات الصحراء - ونحن نراهن غاديات رائحات في أرديتهن البيض!

ولم أكن أخشى شيئاً كما أن أسيء إلى وجه جميل من بينهن برسم غير جميل.. ومن حسن المصادفات أني كنت كلما رسمت وجهاً اقتربت

صاحبتة مني ونظرت إليّ تشجيع ثم قالت: «بديع.. بديع!.. وهل أنا هكذا جميلة؟» أو قالت شيئاً كهذا يعرب عن ارتياحها وسرورها.

وكانت نتيجة ذلك في نفوسهن أن تزداد عنايتهن بالمرضى.

والحق أنني لم أكن أرسم الوجه بالدرجة المتقنة التي لا مأخذ عليها.. ولكنك إذا أعطيتني أنفاً كأنف (سيرانو دي برجرانك) أو شارباً كشارب فالنتينو أو كلارك جيبل، أو حواجب كثة الشعر، فإن معظم هذه المعالم تكون عادة أظهر شيء في ملامح رسومي، بحيث لا تستطيع أن تتخطاها.. أو تخطئها أبداً!.

لقد رسمت بقلمتي قبل أن أغادر المستشفى ما لا يقل عن دسنة من الاسكتشات لكل واحد، وأرجو أن تصدقني إذا قلت لك أن واحداً أو اثنين ممن حصلوا على رسومهم قد وضعوا الصورة في إطار.. إن هذا يدلك على مبلغ غرام الناس بالرسوم!.

\*\*\*

وهذا يأتي بي إلى الواقعة التي أشرت إليها.

لقد صدرت إلى الأوامر في هذا العام بأن أذهب مع كتيبي للاشتراك في التدريبات التكتيكية التي أجريت في «بونا».. وانتهينا من هذه التدريبات في ١٣ من يناير، وفي اليوم التالي، أخذت مكاني في القطار الذاهب إلى «بومي»، في طريقي إلى «ديولالي» حيث كنا

نعسكر.. وقبل أن يغادر القطار محطة «بونا» حضر زميلان أو ثلاثة من أصدقائي لتوديعي... كانت هذه المجاملة منهم تستحق التقدير، وبخاصة إذا ذكرنا أنهم وجميع الزملاء كانوا في الليلة السابقة يشهدون سهرة الاحتفال الذي أقيم في ختام التدريبات.

ولم ينصرف أصدقائي إلا بعد تهيأ القطار للرحيل.

وبعد أن أخذ القطار يشق ويطوي الأرض، وجدتني وحيداً في الديوان الذي وقع عليه اختياري، ومر رجل طويل القامة وأخذ يسترق النظر من خلال فتحة الباب.... يبدو أنه كان يبحث لنفسه عن ديوان مستقل، فلما رآني مرابطاً عند النافذة، رفع رأسه ومضى لسبيله، ولكنه ما لبث أن عاد ثانية إذ لم يجد بغيته، فأخذ مجلسه في المقعد المقابل.. وعندما جاوز القطار محطة «كيركي» ذهبت إلى «عربة الأكل» لأشرب القهوة، وحين عدت بعد نحو نصف ساعة، وجدت صاحبنا المسافر يغط في نوم عميق!.

وبينما كنت أتسلى بالقراءة، جعلت أتطلع إلى وجهه مرة أو مرتين من غير اهتمام.. لقد كان ذا وجه متميز الملامح، وشارب كشارب رونالد كولمان وأنف روماني كالخطاف.. وجه جذاب ينبي عن جمال التقاطيع.. الأسنان البيض، والعيون السود.. وإن كنت لم أر منه وهو نائم أسنانه ولا عينيه.. أجل لقد كان وجهه يوحي إلى الناظر إليه بأن صاحبه قبطان مظفر، أو قائد عائد لتوه من غزوة ناجحة!.

وما إن رأيت هذا الوجه.. هذه المادة الصالحة لإجراء التجارب  
وتطبيق النظريات، حتى ركبني شيطان الفن.

وبكل حذر، ومن غير أن أحدث أي صوت، أخرجت كراسة الرسم  
وأقلام الرصاص من حقيبتي، ورحت أرسم وجهه..

ومضى بعض الوقت ثم صرنا نجاوز مدينة (لونافا) بقليل.. وقد  
أخذ القطار ينحدر نحو الوادي العميق.. وفي خلال ذلك يهتز اهتزازاً  
جعلني أكف عن مواصلة الرسم.. ولكنني كنت قد انتهيت إلى حد فيه  
الكفاية، فقد نقلت إلى الورقة ملامح وجهه واضحة كاملة، وكنت على  
ثقة من أنني أستطيع أن أضيف الرتوش الأخيرة بمجرد أن أصل إلى  
«كارجات».

واستغرقت في النظر إلى هذا العمل الذي أتممته وأنا أحس بسرور  
زائد. فلم أنتبه إلى الرجل الذي فوجئت به يفتح عينيه بعد أن أفاق من  
إغفائه.. وسمعتة يوجه إليّ الكلام قائلاً:

– معذرة لتطفلي.. ولكن ما هذا الذي تصنعه؟.

ونظرت إليه.. كان يرمقني بعينين واسعتين، وكما حرزت، وجدت  
عينيه سوداوين، براقتين كالمعدن، أما أسنانه فلم تكن بيضاء كما  
حسبت، بل كانت صفراء صدئة، ووجدته قد فقد إحدى أسنانه الأمامية.

وابتسمت له، وقلت مجيباً عن سؤاله:

- لقد كنت أحاول أن أرسم وجهك.. وأرجو ألا تكون مستاء..

ومرت دقيقة طويلة دون أن ينطق، ظل فيها يحدجني بنظراته،  
وأفلقني ألا أرى ابتسامة على فمه يحييني بها، فعدت أقول له:

- أرجو ألا يكون ذلك قد ضايقتك.

فهز رأسه وتكلف الابتسام وقال:

- لا، لا بالطبع. ولكن هل أستطيع أن أرى هذا الرسم؟.

فوضعت الكراسة على النضد الذي يفصل بيننا وأريته الرسم،  
فانحنى على النضد ونظر إليه ملياً، ثم صاح قائلاً:

- يا لله! أهكذا أبدو!؟.

وصدمت من هذه الكلمات.. فقد كنت أحسب أنني أحسنت  
الرسم إذ كان هو من أحسن محاولاتني في هذا الاتجاه. ولكنني قلت  
مستخدمًا لغة الفنانين:

- إن الناس لا يرون أنفسهم كما يراهم سواهم.. وبجانب هذا  
كنت أنت نائمًا، فلم أتمكن من رسم العينين.

فقال معتذرًا بعد أن غير من لهجته:

- لا . إني لم أقصد هذا.. إن الرسم يشبهني شهاً عجيباً.. حقاَ إنه لرسم جيد!.

وتحولت عبارته إلى لهجة متوددة.. ولكن لم يزايلني الشعور بأنه لم يكن راغباً في أن ترسم صورته، ولذلك أغلقت الكراسة، وهممت بوضعها في مكانها من الحقيقة، ولكنه عاد يقول:

- الحقيقة إني أحب أن أحصل على هذا الرسم.

فاعترضت قائلاً:

- ولكنه لا يستحق كل هذا الاهتمام.. وفضلاً عن ذلك فهو لم يكمل بعد!.

- بل هو جميل جداً، وأنا موقن إن آية إضافة إليه ستفسده!.

- هل تحب هذا الرسم حقاَ إلى هذا الحد؟.

فقال:

- بالطبع بالطبع.. وإني أرجو أن تعطيني إياه.

وكنت راغباً في أن أعطيه الرسم لولا أنني لم أكن أريد أن قطع الورقة وأشوه شكل الكراسة.. لقد كانت كراسة فاخرة وورقها من نوع ممتاز وقد كلفتني ثمناً كبيراً.

ولمح الرجل ترددي، فقال لي على غير انتظار:

- إصغ إليّ.. هل تبيع الصورة لي؟ سأعطيك خمسين روبية ثمناً لها!.

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أستطيع فيها أن أبيع شيئاً من إنتاجي.. وكنت أتوق إلى إتمام هذه الصفقة!. فأنت تعلم إننا نحن ضباط الجيش لم نكن نحصل على القدر الذي يكفيننا من المال.. وأن خمسين روبية في هذه الأيام تأتيك من حيث لا تتوقع لشيء له قيمته... ومع ذلك فقد قلت له:

- أنت ترى أنكراستي من نوع خاص. وأنا لا أريد أن أنزع منها أية صفحات. ولكن عندي حل، إذا كنت تعطيني عنوانك فإني أرسم لك واحداً آخر من هذا الاسكتش وأرسله إليك بالبريد.

فنظر إليّ نظرة غريبة، وتململ في جلسته، ثم ابتسم قائلاً:

- إذن ليكن الثمن مائة روبية... وأظن أن كراستك مهما تكن قيمتها لا ترتفع إلى هذا الثمن؟.

وعندئذ لم يكن لدي ما أفعله سوى أن أقطع الورقة وأقدمها له وشكرني رفيقي في برود وطوى الورقة بعناية ثم وضعها في حافظته.. وبعد دقائق قام فجأة عن مقعده وحمل حقيبته وخرج، دون أن يلقي عليّ

حتكلمة تحية.. وشعرت بمرارة من جراء تصرفه هذا.. ولكنني لم أعد أهتم بهذا الأمر.

وجعلت أعد نقودي.. أعد المائة روية التيكسبتها في مقابل الاسكتش الذي لم يستغرق إعداده أكثر من نصف ساعة.. لقد جعلني هذا أحس بالثقة التي لا حد لها، في مواهبي، ومقدرتي الفنية..

\*\*\*

وانقضى على هذه الواقعة نحو شهر.

وذهبت إلى «بومبي» لأقضي إجازتي السنوية.. وقد اعتدت أن أكون بصحبة صديقي «جوتام بوري» من رجال المباحث.. لقدكنا في المدرسة معاً.. والتحقنا بالجيش في وقت واحد، ولكنه في نهاية الحرب الأخيرة ترك الجيش ليلتحق بالبوليس.

وفي ذلك الوقت، وكان حوالي أوائل فبراير، وقع حادث سرقة خطير في «پونا»، جعلت الصحف تتحدث عنه طويلاً، وتتهم قوات الأمن بالتقصير والعجز، وهو حادث اختفاء «جواهر مستري» لقد فقد السيد «فاضل مستري» الذي يقيم في «پونا» عقداً من اللؤلؤ تتوسطه ماسة ضخمة غالية الثمن جداً ولم يعرف السارق بعد!.

وكنا ونحن نجلس أنا وصديقي لتناول طعام الافطار، لا يفوتنا أن نتحدث عن هذه السرقة وعن السارق الخطير الجريء.. كنت أقول للسيد «بوري»:

- كيف تتركون الصحف والناس يخوضون في ذكر الحادث ويلوثون سمعتكم ولا تصنعون شيئاً؟!.

فيرد قائلاً:

- ومن أين لك أن تعلم أننا لم نصنع شيئاً؟.

- لو كنتم بحسبكم ودرستم ودققتم لوصلتم إلى الكشف عن هذا الحادث الغامض..

فيقول:

- إذن دعني أصارحك بأننا قد توصلنا إلى الحل في هذه الواقعة.. لقد عرفنا من هو سارق الجواهر!.

وعندئذ قلت ساخراً:

- أتقول حقاً يا مستر «شرلوك هولمز»؟.

- أتراني أتكلم جزافاً؟! إذن تعال معي إلى مكثي وسأريك كل

شيء..

وقمنا...

وفي الطريق شرح لي رجل المباحث «جوتام» كل شيء.. قال لي أن الخزانة قد وُجِدَتْ مفتوحة في مساء يوم ١٣ يناير، وكان جميع أفراد الأسرة يتناولون عشاءهم في خارج البيت. فاللص كان صاحب تدبير.. كان مستعداً وآمناً على نفسه.. ومثل هذا النوع من اللصوص لا يكون هاوياً ولا مبتدئاً.. بل لا بد أن يكون ذا سوابق.. أي أن يكون له عندنا في سجلات المباحث التحريات الكاملة عنه وعن أوصافه.

وفوق ذلك فإن هذه العملية التي يستخدم فيها اللص يديه بكثرة، لا بد أن تكون آثار البصمات فيها كثيرة.. ولا غرابة في أن يترك اللص بصمات أصابعه فإن القفاز الجلدي وغيره من الوسائل التي يستعين بها بعض اللصوص لم تكن معروفة في تلك الجهات في ذلك الوقت. وقد وجدت فعلاً على جوانب المكتبة بصمات معروف في المباحث، وله عندهم سجل حافل!

قلت له:

– فلماذا إذن لم تلتقوا القبض عليه؟

قال:

– لسببين: أولهما أن هذا اللص نفسه كان يزور السيد «مستري» قبل الحادث بأسبوع. ومن المحتمل أن تكون هذه البصمات قد تركت

في ذلك التاريخ، أو هذا على الأقل هو ما سيحتج به المحامون عن المتهم. والثاني أن اللص لن يعدم وسيلة للإتيان بمن يشهد بأنه في ليلة ١٣ يناير وقت السرقة لم يكن في «بوننا» بل كان هنا في «بومبي» مثلاً..

قلت:

- وحاصل هذا الكلام أنكم لم تضعوا أيديكم على اللص.. أو أن عقد الجواهر لم يأخذه الشخص المشتبه فيه.

فقاطعني قائلاً:

- لا تسخر.. إننا نعلم علم اليقين أنه هو الذي أخذ العقد.. ولكن لكي نبرهن على إدانته أمام المحكمة لابد من الإتيان بقريئة.. وكما قلت، لا تكفي البصمات التي وجدت لإدانته، إن علينا أن نبحث عن القريئة التي تثبت وجوده في «بوننا» ساعة وقوع الحادث، وأصارك القول أنه ما لم نأت بهذه القريئة، فسيظل اللص بعيداً عن أيدينا!.

\*\*\*

قلت له وقد وصلنا إلى المكتب:

- ولكن من يكون هذا الرجل؟.

قال:

- إن له سجلاً عندنا سأطلعك عليه، أما اسمه فهو «منصور جاداً».. إنه رجل وجيه يقتني سيارة «بويك» وينتمي إلى أحد النوادي الكبرى..

وأمر بإحضار السجل فأتى به أحد رجاله، وأخرج منه صورة فوتوغرافية وضعها أمامي قائلاً:

- هذا هو منصور جاداً، الذي نوقن أنه هو اللص الحقيقي، إننا سنأتي به للمحاكمة ولكننا لسنا واثقين من النتيجة!.

وما كدت أرى الصورة، حتى صرخت. لقد كانت صورة الرجل الذي قدم لي مائة روبية مقابل الاسكتش الذي رسمته.. الرجل ذي الوجه المتميز والأنف الروماني، والشارب الذي يشبه شارب «رونالد كولمان».. تماماً كما رسمته!.

- أن هذا الرجل قد سافر معي من «بوننا» إلى «بومبي»..

- حقاً؟.. ومتى كان ذلك؟

- دعني أتذكر.. انتهت التدريبات يوم ١٣ يناير وسافرت يوم ١٤

يناير.. نعم صباح يوم ١٤.

وكاد «جوتام» يقفز من مقعده. وصاح:

- لا تتحرك من مكانك، ولعلك لن تقول أنها إحدى دعاباتك السخيفة. إن معنى كلامك أنه كان في بونا ليلة حادث السرقة. هل أنت متأكد من أنه هو الرجل الذي سافر معك؟.

- كل التأكيد.. لقد رسمت وجهه!.

- يا للحظ السعيد!.. وهل أحضرت الرسم معك إلى «بومبي»؟.

- بل أعطيته له مع الأسف.. فقد عرض عليّ أن يشتريه مقابل مائة روية.

- أعطيته ماذا؟.. أيها الغبي.. ألا تعلم أنه كان مستعداً أن يقدم الآلاف لكي يحصل على الرسم، ويمحو الدليل الوحيد على إدانته.. وإلا فقل لي من هو المغفل الذي يقدم نقوداً في مقابل العبث الذي ترسمه!.

وفجأة صحت من جديد بعد أن تذكرت:

- إنتظرا!.. أن لدي نحوسة رسوم له فيكراستي، لقد كنت على عادتي أجرب كيف أرسمه قبل أن أقنع بالنسخة الأخيرة.. النسخة الكاملة التي أخذها.

وقفزنا في سيارة بوليسية وانطلقنا إلى المنزل حيث أخرجتكراستي وأريته الرسوم.. ورأيت بعد ذلك صديقي رجل المباحث يأخذ مقعده في السيارة وهو في هيئة بطل من أبطال الروايات البوليسية!.. ولم يفته في أثناء ذلك أن يسألني قائلاً:

- وكيف تبرهن علي أن سفرك كان يوم ١٤ يناير؟.

وقلت له بغير تردد:

- الأمر سهل.. لقد جاء إلى القطار بعض أصدقائي من رجال الجيش ليكونوا في وداعي.. وهم بالطبع أحياء يرزقون..

وقدم اللص للمحاكمة.. ومعه قرينة الاتهام.. فحكم عليه بالسجن مع الأشغال مدى أربع سنوات.

ولكن هذه النهاية لم تسعدني.. بل لم تكن تهمني بقدر اهتمامي بالاطمئنان على مقدرتي الفنية.. إنني لا أستطيع أن أسلم بأن (منصور جاد) لم يدفع المائة روية إلا لكي يستحوذ على الصورة ويعدمها!.. هل أراد حقاً أن يتخلص منها بأي ثمن؟.. أليس من المحتمل أن يكون قد اشتراها إعجاباً بها وشهادة منه بأصالة فني؟.

أردت أن أفتش حجرتها لعلي أعثر على ما كانت تكتبه، والتقطت ملفاً، وكان أول ما وقعت عليه عيني رسالة باسمها!.